لا يكمن المجهود النظري والتحليلي- التأويلي لعالم الاجتماع المغربي أحمد شرّاك في مجرّد تناول هذا الربيع، بل في وضع الثورات العربيّة في سياق تاريخي ممتد في الذاكرة الجمعيّة، جاعلاً منها حلقة من حلقات النهضة المؤجّلة

الثورات، كما لا ينفصل عن خلفيّات ومرجعيّات التحوّل من الطابع السلمي إلى الطابع العنفي، مثلما حدث في ليبيا وسورية واليمن، حيث تتخذ المذهبيّة الدينيّة والعشائريّة طابعاً فاصلاً لا جامعاً. في هذا السياق، يقول أحمد شرّاك: «لا شكّ أنَّ هذا الملمح هو المفتاح الأوّل في القراءة المتقاطعة، خاصّة وأنَّ الثورات الحاليّة سواء في تونس أو مصر أو ليبيا، أو اليمن ...قد أطاحت برؤوس النظام السياسي، إن لم نقل بملامح النظام السياسي ورموزه الدالّة والعامّة، فهي ثورات سلميّة كثورة مصر وتونس، حققت ما حققته الثورات الإنسانيّة، سواء تلك التي كان طريقها اللّاعنف والسلم، أو حتى تلك الثورات التي سلكت العنف وأسالت الدماء من أجل بلوغ أهدافها الثوريّة.[١٥]

خطاب الثورة بين موت المثقف العضوي وميلاد المثقف التأسيساتي

٤-١- المثقفون العرب قبل الثورات: جدل الجلد والتمجيد

لا يختلف اثنان على حال الثقافة في البلاد العربيّة وحال المثقفين الذين وجدوا أنفسهم يعيشون وضعاً هامشيّاً يختلف إلى هذا الحدّ أو ذاك، من بلد إلى آخر، ومن فترة زمنيّة إلى أخرى، حسب الانفراج السياسي، وطبيعة الاستبداد بهذه البلدان، ما بين استبداد مفتوح يؤمن بالحياة الدستوريّة، وبديمقراطيّة التقسيط، وما بين استبداد مغلق، لا يؤمن إلّا بالسلطويّة واحتكار كلّ مقدّرات البلاد الماديّة والرمزيّة، ولا ترى هذه الأنظمة في المثقف سوى صوت النشاز الذي يقلق راحتها، وبين احتكار مالكي وسائل الإنتاج الإعلاميّة من الطبقة الاقتصاديّة الريعيّة التي استفادت من قربها من مربّع السلطة والحكم بهذه البلدان، وتقلّص مساحات التعبير والحريّات الفرديّة، بات المثقف يعيش المدّ والجزر بين الانتماء إلى السلطة والدفاع عنها، أو نقدها من خلال الحفاظ على مسافة تجاهها، خاصّة بعد أن انخرط المثقفون في المؤسّسات، سواء من خلال اتحادات الكتّاب أو النقابات أو الهيئات الثقافيّة شبه الحكوميّة، بكل ما أصابها من وهن وجمود. فبالرغم من أنَّ هذه المؤسّسات قد حققت فكرة التحديث الاجتماعي والثقافي إلى حدّ ما، إلّا أنَّها ساهمت في الإفقار الثقافي، وهما المفهومان المتوازيان في فكر هابرماس؛ باختصار، لقد أدّت هذه الآليّة إلى عرقلة إنجاز الحداثة الثقافيّة.

تبدأ العلاقة بين المثقف التقليدي وبين المؤسّسة الرسميّة بتوقيع عقد «السلامة»، وأيّ إخلال بهذا العقد يعتبر تمرّداً على السلطة وتهديداً مباشراً لها، وبذلك يضع المثقف نصب عينيه هدف الحفاظ على الوضع القائم، ومع توغله في «دهاليز» المؤسّسة الرسميّة، وبدون وعي منه أو قصديّة، يدرك أنَّ الحفاظ على الوضع القائم يعني الحفاظ على موقعه بشكل مباشر، وبذلك لا يتغير أيّ شيء، أو كما يقول صموئيل بيكيت في مسرحيته الشهيرة «في انتظار جودو»: «لا شيء يحدث، لا أحد يمرّ من هنا».[١٦]

ضمن هذا الأفق التحليلي، يقول أحمد شرّاك: «في إطار سوسيولوجيا المثقفين، يمكن القول إنَّ الاستبداد استطاع أن يستجلب كثيراً من المثقفين بحكم الإغراءات التي يمارسها الاستبداد، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لأنَّه يخشى أقلامهم وأدوارهم، وانطلاقاً من

١٥ـ أحمد شرّاك، المرجع السابق نفسه، ص ٧١

١٦- شرين أبو النجا، المثقف الانتقالي من الاستبداد إلى التمرّد، ط١، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٤٦